# صورة الممدوح في معزيات ابن هانئ المغربي الأندلسي

أ. فاتح حمبلي
قسم اللغة العربية
المركز الجامعي أم البواقي

**ملخص**

يتناول هذا البحث صورة الممدوح في معزيات ابن هانئ المغربي الأندلسي منتهجا في ذلك طريقة استقصاء الأشعار التي نظمها الشاعر خلال مراحل حياته الشخصية والفنية وقد تعرض البحث إلى تتبع تاريخ القصائد – ما أمكن ذلك- وبما توافر من مادة تاريخية وبعد ترتيب زمني للقصائد رصد البحث تطور رؤية ابن هانئ المذهبية والفنية وخلص إلى أن صورة الممدوح- المعز ,نمت في مخيلة الشاعر بقدر نمو العقيدة الباطنية في قلبه ففي نهاية المرحلة المغربية، كان الممدوح في خيال الشاعر نموذجا للبطل العربي، المشبع بكل قيم الفروسية وأخلاقها ,أما بعد انتقال ابن هانئ إلى بلاط المعز فان صورة الممدوح اتخذت أبعادا جديدة، فلم يعد الممدوح فارسا مثاليا فحسب . إنما ارتقت صورته في نفس الشاعر بفعل تلقيه للمقولات الباطنية، وارتقائه في مراتب الدعوة الاسماعلية إلى منزلة الأنبياء والرسل، ثم حلقت إلى مصاف الملائكة المقربين وبعد ذلك اكتملت أجزاء صورته في نهاية المرحلة الإفريقية، فإذا بالممدوح إله، ترجى مغفرته، ويخشى عقابه، إله لا تدركه الأبصار ولا تحده الأوصاف .

**Résumé**

**Notre recherche s'articule autour du calife Moeiz dans la poésie d'Ibn Hani. A travers l'exploration des textes de l'auteur suivant l'ordre chronologique d'apparition, nous avons analysé les différentes images de Moeiz réfléchies dans les poèmes de Ibn hani. Le calife exerça une profonde influence sur l'auteur qu'il décrit dans les termes les plus sublimes et les plus élogieux pour chanter sa gloire. L'image de Moeiz est tour à tour revêtue d'attributs réservés aux dignes chevaliers Arabes, aux figures religieuses illustres, aux prophètes et messagers de Dieu et allant même jusqu'à commettre le blasphème de l'élever au rang des archanges sacrés.**

**أولا- الطور الأول**: القصائد التي نظمها ابن هانئ، خلال هذا الطور، تكاد تخلو من أي تفكير باطني ماعدا بعض الأفكار الشيعية البسيطة التي تشترك كل فرق الشيعة في ترديدها. ففي القصيدة البائية التي نظمها ابن هانئ خلال هذا الطور تكاد تخلو من أي توجه باطني ماعدا بعض الأفكار الشيعية العامة التي يقول بها كل الشيعيين. ففي هذه القصيدة التي نظمها ابن هانئ في مدح المعز والتي أشار في ثناياها إلى الهزيمة التي لحقت الأسطول الأموي عند ساحل المرية سنة 344 هـ 955 م[1] يقول ابن هانئ: [2]

لقيت بني مروان جانب ثغرهم وحظهم من ذاك خسر وتتبيب

فإذا تتبعنا قراءة القصيدة من أولها إلى آخرها، فإننا لا نقع فيها إلا على مدح الشاعر للمعز ووصفه بالصفات التقليدية التي طالما رددها الشعراء كقوة البأس، والشجاعة الفائقة، وأصالة النسب، والكرم، والحكم العادل.

ولا مدح إلا للمعز حقيقة يفصل درا والمديح أساليب
نجار على البيت الأمامي معتل وحكم إلى العدل الربوبي منسوب

يرى ابن هانئ في المعز أنه الأحق بحماية الدين، ونصرة الحق، وإعادة بعث القيم العربية، والإسلامية إلى الوجود، بعدما كادت أن تعفو وتزول بسبب اشتغال حكام بني العباس باللهو والشراب. فما دامت ثغور المسلمين معرضة لنهب العدو، فمن حق المعز أن ينتقم للمسلمين من الروم، ويحمي الثغور ويمتلكها ولو كانت في يد بني العباس.

ومن عجب أن تشجر الروم بالقنا فتوطأ أغمار، وهضب شناخيب
ونوم بني العباس فوق جنوبهم ولا نصر إلا قينة وأكاويب
وأنت كلوء الدهر، لا الطرف هاجع ولا اعزم مردوع ولا اجاش منخوب
هم أهل جراها، وأنت ابن حربها ففي القرب تبعيد وفي البعد تقريب

وقال ابن هانئ بمدح الخليفة المعز لدين الله ويذكر خيبة بني أمية وقصورهم عما تطاولوا عليه،[3] وربما يكون هذا الحدث التاريخي سنة 345 هـ أو أواخر سنة 344 هـ حين أخرج الناصر صاحب الأندلس أسطوله إلى سواحل إفريقية مع غالب مولاه فمنعتهم عساكر المعز لدين الله.[4] يقول ابن هانئ مشيرا إلى خيبة الأسطول الأموي:

خابت أمية بالذي طلبت كما يخيب برأس الأقرع المشط
وحاولوا من حضيض الأرض إذا غضبوا كواكب عن رأسي شأوها شحطوا

يمدح الشاعر المعز في القصيدة بكل الصفات التقليدية المطروقة، ولا يتعرض للمعاني الشيعية إلا في انتساب الخليفة إلى آل البيت يقول:

يا أفضل الناس من عرب ومن عجم وآل أحمد إن شبوا وإن شمطوا

أما الصفات التقليدية التي وصف بها ابن هانئ ممدوحه فليس فيها ما هو جديد إلا طريقة صياغته للمعاني، بما ينسجم مع تجربته الذاتية، وميله إلى الإغراق في المبالغات اللفظية. فالمعز هو تلك الشخصية الإنسانية التي جمعت الفضائل في أسمى صورها، كالكرم الذي فاق فيه الممدوح غزارة المطر، والوجه الذي لا يدانيه بهاء، وعلو المرتبة التي تعلو على النجوم الزهر، والعدالة في الحكم كما يتطلبها منصب الإمامة، والترفع على حطام متاع الدنيا، وعدم الإحتفال بها.[5]

تالله ! لو كانت الأنواء تشبهه ما مر بؤس على الدنيا ولا قنط
شق الزمان لنا عن نور غرته عن دولة ما بها وهن ولا سقط
حتى تسلط منه في الورى ملك زينت بدولته الأملاك والسلط
يختط فوق النجوم الزهر منزلة لم يدن منها، ولم يقرن بها الخطط
إمام عدل وفي في كل ناحية كما قضوا في الإمام العدل واشترطوا
لا يغتدي فرحا بالمال يجمعه ولا يبيت بدنيا وهو مغتبط

ويمضي الشاعر في مدح المعز بما يتفق من الفضائل بمنصب الخلافة من العدل، والحق وشدة البأس.

يزري بفيض بحار الأرض لو جمعت بنان راحته المغلولب الخمط
ووجه، بجوهر ماء العرش متصل عرق بمحض صريح المجد مرتبط
شمس من الحق مملوء مطالعها لا يهتدي نحوها جور ولا شطط
يروع الأسد منه في مكامنها سيف له بيمين النصر مختـرط

ونلاحظ هنا استخدام الشاعر لكلمات خاصة لعله اقتبسها من القاموس الشيعي تتعلق بشخص الإمام وخلقه كقوله "جوهر ماء العرش" و"شمس من الحق". ويختم الشاعر القصيدة بتفضيل المعز على سائر ملوك الدنيا، فهو بحر وهم نقط من الماء

إن الملوك إذا قيسوا إليك معا فأنت من كثرة بحر وهم نقط

وفي القصيدة الموالية يمدح الشاعر المعز الدين الله، ويصف الخيل وشدة شغفه بها والمتتبع لأبيات القصيدة التي تبلغ ستة وثمانين بيتا، لا يلمس فيها أي أثر من آثار العقيدة الإسماعيلية سوى ما يظهر من تحامل الشاعر على الأمويين الذين منعوا أن البيت من أبناء فاطمة من مفهم في الخلافة وفي على هذا الحق بما ورد من أدلة في القرآن والسنة حب زعمه[5]

ألا أن حقا دعوتم إليه هو الحق ليس به خفا
لآدم من سركم موضع له أستوجب العفو لما عصى
عجبت لقوم أضلوا السبيل وقد بين الله سبيل الهدى
فما عرفوا الحق لما استبان ولا أبصروا الفجر لما بدا
أفيقوا فما هي إلا اثنتان إما الرشاد وإما العمى
وما خفي الرشد لكنما، أضل الحلوم أتباع الهوى

ويمدح ابن هانئ المعز بعد ذلك بالشجاعة والقوة في المعارك ويتفنن في وصف الخيول في أشكالها وألوانها وعدوها، ويشير إلى إعجاب المعز بها وشدة شغفه بصفاتها، وتخيره لأسمائها، فالخيول في نظر الشاعر هي:

فهن نفائس ما يستفـــاد وهن كرائم ما يقتنى
ديــار الأعزة لكنهـــا مكرمة عن مشيد البنا
من أجــل ذلك لا غيــره رأى الغــنوي[6] بها ما رأى
وكان يجيد صفات الجياد وإن بها اليوم عنه عنى
أليس لها بالإمام المعــز من الفخر لو فخرت ما كفى؟
هواستن تفضيلها للملوك وأبقى لها أثر في العلى
ولما تخير أنسابهـــا تخير أسماءها والكنى

وعلى هذه الخيول الأصيلة أنصار المعز يحملون سيوفا بتارة تلمع من شدة بياضها وصقلها حتى يخيل للأعداء أنها نار مضرمة:

عليها المغاوير في السابغات تــرقرق مثل متون الأضا
حتوف تلها بأمثالهـــا وأسد تغذ بأسد الشـــرى
تبختر في عصفر من دم وتخطر في لبد من قنـــا
وقال الأعادي: أأسيافهــم أم النار مضرمة تصطلـــى

إن هذه الخيول لا تعدو في ساحات الوغى، إلا طاعة للإمام الذي قلده الله الحكم الخلق كلهم

تطيع إماما أطاع الإلـــه فقلده الحكم فيما بـــرا

* - ويشيد الشاعر بشرف نسب الممدوح وبعلو المرتبة التي لا يشاركه فيها أي بشــر فالممدوح حل الشرف من جهتين جهة النبي محمد - صلى عليه وسلم- وجهة علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

هو الوارث الأرض عن أبوين أب مصطفى، وأب مرتضى

وما لامرئ معه سهمـــــــــة تعد ولا شركة تدعـــــــــى

وينهي الشاعر القصيدة، بوصف المعز بالجود والكرم، والهداية التي يجدها في رحابه وابتاعه كل من ظل الطريق، فكأن الهدى كان مغمورا في الأرض غير منتشر إلى أن ظهر المعز وصار حاميه ورائده فسمي بمعز الهدى[7]

ليعرفك من أنت منجاتـــــــه إذا ما اتقى الله حق التقـــــى
كأن الهدى لم يكن كائنـــــــا إلى أن دعيت معز الهـــــدى
ولم يحكك الغيث في نائـــــل ولكن رأى شيمة فاقتـــــــدى
فلو يجد البحر نهجا إليـــــك لجاءك مستسقيا من ظمـــــا
إلى مثل جودك تنضى المطي ومن مثل كفيك يرجى الغنـــى

أما القصيدة الرابعة فقد نظمها في مدح المعز لدين الله الفاطمي بمناسبة عيد الفطر حسب ما يتضح من البيت الآتي:[8]

وجلا الفطر منه عن نبوي أبيض الوجه أبيض الأخلاق

والقصيدة تبلغ واحدا وأربعين بيتا ولذلك تعد قصيرة النفس إذا قيست بالقصائد السابقة، وأبرز ما يميز مضمون هذه القصيدة هو الاحتفاء بوصف مظاهر العيد عند الفاطميين بإفريقية، حيث يصف الشاعر موكب الخليفة عند خروجه إلى ساحة الاحتفال وحوله عساكره تحمل الألوية والسيوف اللامعة وتمتطي أنفس الخيول العربية التي يعجب الرائي بحسنها وشدة عدوها يقول ابن هانئ في ذلك:

لبس العيد منه ما يلبس الإيما ن من نصل سيفه البـــــــراق
وجلا الفطر منه عن نبـــــوي أبيض الوجه أبيض الأخـــلاق
ساحبا من ذيول مجر لهـــــام تؤذن الأرض تحته باصطفاق
ليس في العارض الكنهور شبه منه غبر الإرعاد والأبـــــراق

رفعت فوقه المغاوير شهبـــا ... من قناني سماوة من طــراق
وغمام من ظل ألوية النصـــ ... ر فمن راجف، ومن خفــاف

ويصف بعد ذلك الشاعر مظلة المعز التي كانت تعلو رأسه أيام الاحتفالات الرسمية، وقد أعجب ابن هانئ بحسنها، فوصفها في أكثر من موضع، ولم تهمل كتب التاريخ وصفها لما لها من جلال وتقديس في نفوس الفواطم، ومما جاء في وصفها: "فيها خطاطيف لطاف، وحلق يمسك بعضها بعضا تنظم، وتنفتح، ورأسها كالرمانة، ويعلوه أيضا رومانة صغيرة كلبا ذهب مرصع بجوهر"[9] يقول ابن هانئ في وصف هذه المظلة:[10]

فوقه خيطة اللجين تهـــادي ... بيدي كل بهمة مصـــداق
من عداد البرهان موجودة للخلـ ... ـق فيها دلائل الخـــلاق
حسنت في العيون حتى حسبنـا ... ها تردت محاسن الأخـــلاق

ويصف الشاعر مظلة المعز في نفس الموقف بمناسبة عيد الأضحى[11]

في موسم النحر السنيع يروقنـي ... فأغض طرفا عن سناه كليـلا
وعلى أمير المؤمنين غمامـــة ... نشأت تظلل تاجه تظليـــلا

ويختم الشاعر القصيدة بوصف الخيل التي تمرح في هذه المناسبة البهيجة ويبالغ في الإعجاب بها، حتى يفضلها على خيل سليمان الوارد ذكرها في القرآن الكريم[12]

أنت أصفيتهن حب سليمـــا ... ن قديما للصافنات العتـــاق
لو رأى ما رأيت منها إلى أن ... تتوارى شمس بسجف الغساق
لم يقل ردها علي ولا يطفـــ ... ـق مسحا بالسوق والأعناق(*)

ما يمكن ملاحظته من قراءة القصيدة السابقة هو خلوها من المعاني المذهبية واقتصارها على المعاني التقليدية التي جاءت منسجمة مع الجو العام للبهجة والسرور بيوم العيد، كإشراق الوجه، وبشاشة المحيا، والتفضل على المستحقين. والقصيدة

**الموالية تعد آخر قصيدة نظمها ابن هانئ في المدح خلال الطور الأول من حياته في بلاط المعز، وفيها يمدح الخليفة، ويصف هدية القائد جوهر وذلك بعد تسخير القائد بلاد المغرب، وانتهائه إلى البحر المحيط سنة 348هـ [13]. يخلص الشاعر إلى المدح دون مقدمة، ويسهب في وصف الخيل التي جلبت ضمن الهدايا التي أهداها جوهر إلى المعز:[14]**

**ألا هكـــذا فليهد من قاد عسكرا وأورد عن رأي الأمام وأصدرا**
**هدية من أعطى النصيحة حقها وكان بما لم يبصر الناس أبصرا**
**ألا هكذا فلتجلب العيش بدنـــا ألا هكذا فلتجنب الخيل ضمـــرا**
**مرفلة يسحبن أذيـــال يمنـــــه ويركضن ديباجا ووشيا محبـــرا**

**ويمضي الشاعر في وصف الخيل، مستمتعا بجمالها، معجبا بصفاتها:**

**يقر بعيني أن أرى من صفاتها ولا عجب أن يعجب العين ما ترى**
**أرى صورا يستبعد النفس مثلها إذا وجدته، أو رأتـــه مصـــــورا**
**أفكه منها الطرف في كل شاهد بأن دليل الله في كـــل مـــا بـــــرا**
**فأخلس منها اللحظ كـــل مطهم ألـــذ إلى عين المسهد من كـــرى**

**فهذه الخيل الكريمة يستحقها المعز وحده، لأنه أفضل إمام في بيت بني هاشم وهو أهل بأن تهدي إليه، لأنه يعتني بتربيتها، ويحسن إعطاء الكنى لها.**

**ألا إنما تهدي إلى خير هـــاشم وأفضل من يعلـــو جـــوادا ومنبـــرا**
**وأهل بان تهدي إليـــه فإنـــــه كناها وسماهـــا وحـــلى وســـــورا**
**وأسكنها أعلى القباب مقاصرا وأحسنها عاجا وساجـــا ومرمـــــرا**
**وبوأها من أطيب الأرض جنة وأجرى لها من أعذب المـــاء كوثرا**
**يجد لها في كل عام سرادقـــــا ويبني لها في كل عليـــاء مظهـــرا**

ثم يشيد الشاعر ببطولة القائد جوهر، وحنكته العسكرية، وحسن تدبيره:

لعمري لئن زان الخلافة ناطقا لقد زان أيام الحـروب مدبـــرا
تضج القنا منه لما جشم القنـا وتضرع منه الخيل والليل والسرى

لكن هذا القائد العظيم لا يتحرك إلا في خدمة المعز. وفي نصرة الخلافة ولذلك حين يمدح ابن هانئ القائد جوهر فإنما يمدح من ورائه الخليفة بإعتباره تابعا من أتباعه المخلصين، وقائد من قواده الأوفياء، لأجل ذلك لم نفرد وقفة للمدائح التي نظمها الشاعر في جوهر - على قلتها - ثلاث قصائد واعتبرناها جزءا من " المعزيات "

هو الرمح فاطعن كيف شئت بصدره فلن يسأم الهيجا، ولـــن يتكسـرا
وقد كانت القواد من قبـل جـوهـر لتصلح أن تسعى لتخدم جـوهـرا

ويمدح ابن هانئ المعز بحسن اختياره للقواد، وبحدة ذكائه، وثاقب نظرته:[15]

فلا يعـد مـن الله عبدك نصـره فمـا زال منصور اليدين مظفـرا
ومـا اخترته حتى صفا ونفا القـذى بل الله في ام الكتـــاب تخيـرا
ووكلته بالجيش والأمـر كلـــه فوكلت بالفيل الهزبر الغشنفـرا
كأنك شاهدت الخفـايـا سـوا فرا وأعجلت وجه الغيب أن يتستـرا
فعرفت في اليوم البصيرة في غـد وشاركت في الرأي القضاء المقدارا

ولعل القارئ يلاحظ إدعاء الشاعر معرفة الممدوح لعلم الغيب، غير أن هذه المعرفة وردت مقيدة بأداة التشبيه "كأن" مما يدفعنا إلى إعتبارها لونا من ألوان المبالغات(*) الفنية فحسب. هكذا ينقضي الطور الأول من رحلة قصيدة المديح في حياة الشاعر في إفريقية دون أن نسجل ما يلفت الأنظار من معان باطنية، إذ ليس هناك معنى مبتكر يفصح عن تمكن ابن هانئ من العقائد الباطنية، ماعدا بعض الإشارات العامة التي توحي ببداية تلقيه للمقولات الإسماعلية، لكنها لا تعدو أن تكون من المعاني الشيعية

البسيطة التي يرددها العام والخاص. وتبقى المعاني التقليدية تسيطر على مضمون القصائد، فالممدوح بالرغم من كونه خليفة المسلمين وأنه أكرم الناس، وأشجعهم، وأعظمهم حظا من الخصال التي يمتاز بها الأبطال، وأنه أحلم العرب والعجم على الإطلاق، وبأنه ابن النبي ومن آله الأقربين وأنه الخليفة الوحيد الجامع لصفات النبل والشرف والرفعة، وأنه الصورة المثلى للممـــدوح الذي ينشده الشاعر في حياته فبالرغم من كل ذلك فإن صورة المعز ونفوذه في هذا الطور الأول لا تتعدى صورة بطل من البشر، إذ ظل ابن هانئ يصف المعز بكل الصفات التي وإن كان مبالغا فيها أحيانا - لم يخرج بها عن حدود المنطق، أو البشرية .

**ثانيا/ الطور الثاني**: وما يثبت نمو عقيدة ابن هانئ هو إقراره بما كان يعانيه من حيرة وتوتر حتى إهتدى إلى المعز الذي أنقذه من حيرته وضلاله يقول في هذا المعنى:[16]

أتبعته فكري حتى إذا بلغـــت غاياتها بين تصويب وتصعيد
رأيت موضع برهان يبين وما رأيت موضع تكييف وتحديد
وكان منقذ نفسي من عمايتها فقلت فيـــــه بعلم لا بتقليـــد

إذن فإيمان الشاعر بالمعز هو في واقع الأمر إيمان بالمبادئ الإسماعلية التي تجسدت في شخصه، هو إيمان صادر عن تأمل وبحث، وصادر عن وعي واقتناع لا عن جهل وتقليد. فقبل أن يرى الشاعر المعز كان في ضلال لم ينتفع بإيمانه ولا عقيدته، ومع المعز وجد الأيمان الحق:

ما أجزل الله ذخري قبل رؤيته ولا إنتفعت بإيمان وتوحيـــد
هادي رشاد وبرهان وموعظة وبينات وتوفيق وتسديـــــــد

فإن كان المعز هو مصدر الإيمان والهداية فإنه أيضا سبب النجاة في الآخرة:[17]

لو لم تكن سبب النجاة لأهلهـــــا لم يعن إيمان العبـــاد فتيـــلا
لـــو لـــــم تعرفنا بذات نفوسنـــــا كانت لدينا عالمـــا مجهـــولا

وقصيدة المديح في هذا الطور ليست مدحا وإشادة بصفات يتحلى بها الممدوح فحسب وإنما هي مسرح يستعرض الشاعر من خلاله تعاليم العقيدة الباطنية وأسرارها التي يؤمن بها، وقيمها التي يتعلق بها. إذا رحنا نتتبع آثار العقيدة الإسماعلية في مدائح الشاعر للمعز فسوف نجدها كثيرة يصعب حصرها، ولذلك سنكتفي بما يبلور رؤية الشاعر الخاصة ويكشف عن مواقفه. إن أهم مسألة عنيت بها العقيدة الإسماعلية هي مسألة الإمامة، لذلك فأغلب بحوث الاسماعليين تدور حول الإمام وما يتصل به من عقائد باعتبار الإسماعلية فرع من فروع الشيعة الإمامية[18]. فالمعز الدين الله الفاطمي يعد في اعتقاد الفاطميين سابع الأئمة. وهو الأساس، ومتمم للدور، فالأسماعليون يرون أن كل إمام سابع يجمع قوى الأئمة الستة الذين قبله لأنه يكون قائما بالفعل بينما الأئمة الستة الذين قبله فيكونون قائمين بالقوة ويكون هو أيضا نهاية الدور ويسمى (أساس) أي أساس للأئمة الذين يأتون بعده، لأنه يعتبر واضع الأسس، والقضايا، والأحكام، وراسم المناهج التي يجب أن يسير عليها هؤلاء الستة بعده[19]. فالإمام في اعتقاد الاسماعليين وجوده ضرورة إما ظاهرا وإما مستورا[20] وذلك لحفظ الشريعة وتدبير مصالح الأمة، فكأن الدنيا لم تخلق إلا بسبب الإمام [21]

هو علة الدنيا وما خلقت له ولعلة ما كانت الأشيـــاء

ويعزز ابن هانئ هذا المعنى الباطني في موضع آخر إذ «تعد الدنيا بجميع مخلوقاتها التي فيها خلقت للإمام، وهو علتها ودنياها وآخرتها، فكما أن الجسم خلق

للنفس فكذلك الدنيا خلقت للمعز وهو سببها، وأن العالم بأسره كشخص واحد نفسه وروحه هو الإمام الذي من أجله قدر المقدور، وكون التكوين »[22]

هذا معـد والخلائق كلهـــا هذا المعز متــوجا والديـــن
هذا ضمير النشأة الأولى التي بدأ الإله وغيبهـا المكنـــون
من أجل هذا قدر المقدور في أم الكتاب، وكون المكنـــون
وبذا تلقى آدم مــن ربـــــه عفـــوا وفاء ليونس اليقطين

إذا كان المعز على هذا القدر من المنزلة الدينية فلنا إن نتساءل من أي طينة خلق هذا الإنسان ؟ يجيبنا ابن هانئ قائلا :[23]

من صفو مـــاء الوحي وهو مجاجة من حوضه الينبوع وهو شفـــاء
من أيكة الفردوس حيــث تفتفــت ثمراتها، وتفيـــــأ الأفيـــــاء
من شعلة القبس التي عرضت على موسى وقــد حارت به الظلمـــاء
من معدن التقديس وهو سلالـــة من جوهر الملكــوت وهو ضيــاء
من حيث يقتبس النهار لمبصـــر وتشق عن مكنــونهـا الأنبـــاء

يرى الباطنيون أن الإمام مخلوق يختلف عن البشر في طينته، فهو أكمل مخلوقات العالم جسدا وروحا، وهو جامع للفضائل كلها والخيرات، فجسده بريء من كل عيب وروحه سالم من كل نقصان [24] والإمام مخلوق جسمه أشرف الأجسام لأن الله حين خلقه «بعث ملكا فأخذه شربة من تحت العرش ودفعها إلى الإمام» [25]. ولذلك نرى الشاعر يشير إلى النسب العظيم الذي ينسب إليه المعز فإذا كان نسب المعز كما رأينا في الطور الأول يعود إلى خير البرية وخير بني هاشم فإنه في هذا الطور يرقى نسبه، ويحلق في أجواء ملائكية: [26]

كل الأئمة من جدودك فاضـــل فإذا خصصت فكلهم مفضول

فافخر فمن أنسابك الفردوس إن عدت ومن أحسابك التنزيــل

والإمام في نظر الشاعر نور كنور الأنبياء والمرسلين المقتبس من نور الله:[27]

وروح هدي في جسم نور يمده شعاع من الأعلى الذي لم يجسم

ويؤكد هذا المعنى في موضع آخر فيقول : [28]

النور أنت وكل النور ظلمـــــة والفوق أنت، وكل فوق دون

أما صفات المعز فهي كل صفة بها الأنبياء، فالممدوح هو أمين الله، وهادي الخلق ووارث الأرض، وشفيع الناس، أي أنه مشارك للنبي –صلى الله عليه وسلم- في كل فضيلة إلا في الوحي فقط:[29]

هذا الشفيع لأمة يأتي بهـــــا وجدوده لجدودها شفعـــــاء
هذا أمين الله بين عبـــــاده وبلاده إن عدت الأمنـــــاء
هذا الذي عطفت عليه مكـــة وشعابها والركن والبطحـــاء
هذا الأغر الأزهر المتألق المـــ تدفق المتبلج الوضـــــــاء
فعليه من سيما النبي دلالـــــة وعليه من نور الإله بهـــــاء

لا لوم على الشاعر إذا تعلق بالمعز، ورأى الملوك وجميع البشر لغوا:[30]

وأرى الورى لغوا وأنـــت حقيقة ما يستوي المعلوم والمجهــول
والناس إن قيسوا إليه فإنهـــم عرض له في جوهر محمــول

فالناس كلهم أجمعوا على فضل المعز، لأنه يستمد هذه الأفضلية من الله ومن الوحي المنزل[31]

شهد البرية كلها لك بالعـــــى أن البرية شاهد مقبـــــــول
والله مدلول عليه بصنعـــــــه فينا وأنت على الدليل دليـــــل

ويشير أيضا إلى إجماع الناس على فضل المعز بما في ذلك القريب والبعيد، والخصم والحميم، واللئيم والكريم:[32]

للناس إجماع على تفضيلـــــــه حتى استوى اللؤماء والكرمـاء
واللكن والفصحاء والبعداء والـــ قرباء والخصماء والشهـــــداء

وهذا الإمام حاز الفضل من البشر ومن الله أيضا وملائكته التي تأخذ عن المعز الهدى بكرة وأصيلا: [33]

أتاكم القدس الذي لم يؤتـــــــه بشرا وأنفذ فيكم التفضيـــــــلا
نطقت بك السبع المثاني ألسنـــا فكفيننا التعريـــض والتصـــريحا[34]
شهدت بفخرك السموات العلـــى وتـــنزل القـــرآن فيـــك مديـــحا

فعقائد الشيعة تؤكد أن الملائكة تدخل بيوت الأئمة وتطأ بسطهم وتأتيهم بالأخبار... والأرض كلها للإمام قال تعالى «إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وأهل البيت هم الذين أورثهم الله الأرض، وهم المتقون»[35] « والإمام يعين بالنص في إعتقاد الشيعة ممن يكون قبله، وبإذنه فالله ورسوله قد نصا على الأئمة واحدا فواحد... وكان كل إمام يعهد إلى الذي يليه، ويترك له كتابا ووصية ظاهرة، وفي هذا الكتاب ما يحتاج إليه ولد آدم منذ خلق الله آدم إلى أن تفنى الدنيا »[36]. لأجل ذلك يلحى ابن هانئ باللائمة ليس على بني أمية، ولا على العباسيين فحسب بل حتى على قريش:[37]

فما لقريش وميراثكـــــــــم وقد فرغ الله مما قضـــــــــى

والمعز في نظره ورث الإمامة عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول في ذلك[38]

ورث المقيم بيثرب فالمنبر الأ على والترعة العليـــــــــــاء

وفي موضع آخر يبين ابن هانئ أن المعز هو الإمام الأوحد الأحق بالخلافة بدليل ما جاء في التنزيل فيكفي أن الله وملائكته يصلون على المعز يقول الشاعر:[39]

وأن لا إمام غبر ذي التاج تلتقي عليه هو ادي مجده والحـــــوارك
له نسب الزهراء دنيا يخصـــه وسالف ما ضمت عليه العواتـــك
ترد إلى الفردوس منكم أرومة يصلي عليكم ربكم والملائـــــــك
ثنائي على وحي الكتاب عليكم فـــلا الـــوحي مـــأفوك ولا أنا افك

ولما كان الإمام منبع الهداية، ومصدر التشريف الإلهي، فمعرفته أصبحت واجبة في نظر الشيعة وولايته على الناس واجبة هي الأخرى، فلا نجاة لأحد من النار إلا بمعرفة الإمام وولايته قال أبو جعفر « كل من دان الله بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول، وهو ضال متحير والله شانئ لأعماله »[40]. هكذا لم يتوقف ابن هانئ عند هذا الحد من الغلو الديني، بل راح يسبغ على ممدوحه كل معاني الجلال والتقديس التي خص بها الله تعالى ذاته وصفاته. فعلم المعز علم ليس له حدود، علم باطني لم تطلع على أسراره وكنوزه حتى الملائكة،" لأن الله قد خص الإمام وحده بمفاتيح الحكمة ومعدن العلم وموضع سره، وعند الأئمة علم بكل الكتب على إختلاف لغاتها، وأن القرآن لم يجمع إلا لهم وحدهم حفظا وتأويلا، وعندهم اسم الله الأعظم، وعندهم الجفر وهو وعاء من آدم فيه علم النبيين والوصيين... والأئمة يعلمون علم ما كان، وما يكون وأنه لا يخفى عليهم شيئ، والله لم يعلم نبيه علما إلا علمه لعلي أمير المؤمنيين، وأنه شريكه في العلم، ثم انتهى هذا العلم إلى الأئمة، ولو كان لألسنة الناس أوكية لحدتثهم الأئمة بما لهم وما عليهم":[41] وإلى هذا العلم الذي خص به المعز يشير ابن هانئ حيث يقول :[42]

وعلمت مـــن مكنون علم الله ما لم يؤت جبريل وميكائيـــلا
لله فيك ســـريرة لـــــو أعلنـــت أحيا بذكرك قاتل مقتـــــولا
لـــو كان أعطى الخلق ما أوتيته لم يخلق التشبيه والتمثيـــلا

لولا حجاب دون علمك حاجــز وجدوا إلى علم الغيب سبيلا

إذن فالمعز يستأثر بعلم الغيب، وهو علم باطني لا يبلغه إلا لمن تشبع قلبه بعقيدة المذهب من خاصة الأشياع كابن هانئ، أما عامة الناس فلا يجوز لهم الإطلاع على أسرار هذا العلم الربوبي، لأن عقولهم عاجزة عن إدراك كنهه، ويؤيد هذه الفكرة الأخيرة ما جاء به أحد شعراء الشيعة من بني زين العابدين في قوله:[43]

إني لأكتم مــن علمي جواهره كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبــو حســن إلى الحسين وأوصى قبله الحسنا
فرب جوهر علم لو أبوح بــه لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنـــا
ولا ستحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونــه حسنــا

وإلى مثل هذه المعاني الباطنية يشيد ابن هانئ بعلم المعز:

لكم جامع النطق المفرق في الورى فمن مشروح وآخر مبهـــم
وفي الناس علم لا يظنون غيـــره وذلك عنوان الصحيف المختم
إذا كان الألباب يقصــر شأوهـــا فظلم لســر الله إن لــم يكتم

فإذا كانت العقول لا تبلغ إلى معرفة سر هذا العلم الباطني، فوجب بعدئذ أن يكون الإمام في ظن الشاعر هو الوسيط المترجم لهذه العلوم للناس : [44]

إذا كان تفريق اللغـــات لعلـــة فلا بد فيها من وسيط مترجم

فعلم الإمام علم موروث، حاصل بالفطرة، والسجية، ولا ينتقل من إمام إلى إمام آخر بالدرس والتحصيل، فالمعز لدين الله الفاطمي كما يذكر صاحب «المجالس والمسايرات» لم يتلق في طفولته مؤدبا أو عالما أفاد منه، ولا رحل في حياته طلبا

للعلم » [45]. وفي هذا المضمار يؤكد ابن هانئ إن علم المعز هو علم رباني لم يتلقه عن أي معلم: [46]

غدوا ناكسي أبصارهم عن خليفـــة عليهم بسر الله غير معلـم

فوالد المعز «المنصور» هو الآخر يملك العلم الباطني، ولذلك علم ساعة ولادة إبنه المعز أنه سيكون له شأن عظيم، حيث يملك الأرض كلها، وسيكون فريد زمانه، وهذه المعرفة الحاصلة للمنصور لم تكن وليدة الفراسة وحدها، بل هي معرفة وليدة الأثر الرباني كما يقول ابن هانئ :[47]

وما جهل المنصور في المهد فضلـه وقد لاحت الأعلام والسمة البهـر
رأى أن سيسمى مالك الأرض كلهـا فلما رآه قال : ذا الصمد الوتـــر
وما ذاك أخذ بالفراســة وحدهـــا ولا لأنه فيها إلى الظـن مضطر
ولكن موجود من الأثر الـــــذي تلقاه من حبر ضنين به حبـــــر
وكنز من العلم الربوبي إنـــــــه هو العلم لا القيافة والزجـــــــر

ويقول أيضا[48]

أبناء فاطم! هل لنا في حشرنا لجـأ ســواكم عاصم ومجار؟
أنتــم أحباء الإله وآلـــــــه خلفاؤه في أرضه الأبـــــرار
أهــل النبوة والرسالة والهدى في البيانات وسادة أطهـــــار
والوحي والتأويــل والتحريــم والتحليل لا خلف ولا إنكـــار
إن قيل من خير البرية لــم يكن إلا كــم خــلق إلــيــه يشــار
لو تلمسون الصخر لا نجست به وتفجــرت وتدفقت أنهـــــار
أو كان منكم للرفات مخاطـــب لبوا وظنوا أنه إنشـــــــار

وحينما تنضج العقيدة الباطنية في نفس الشاعر، وتتمكن من قلبه، تملأ عليه حسه وشعوره يندفع دونما تردد في وصف المعز بما يصف به المؤمنون خالقهم من معاني الجلال والقدسية التي يعجز اللسان عن الإحاطة بها يقول:[49]

شرقت بك الآفاق وانقسمت بك الأ رزاق، والآجال والأعمـــار
عطرت بك الأفواه إذ عذبت لك الأ مواه حين صفت لك الأكدار
جلت صفاتك أن تحـــد بمقــول ما يصنع المصداق والمكتار

واللافت للانتباه أن لغة الشاعر في الطور الأخير من حياته، لغة سهلة لينة تنساب كالماء رقة وعذوبة، بما تزخر به من ألفاظ روحية، وكلمات صوفية ومعان قدسية، إستلهمها ابن هانئ من إيمانه العميق بمقولات الإسماعلية وغوصه في فهم أسرارها الباطنية، بخلاف لغته فيما سبق من المعاني التقليدية إذ كان الشاعر يميل إلى توظيف الألفاظ البدوية، والكلمات الضخمة القوية. ويغرق الشاعر في غلوه إلى درجة الحلول (*) فيصور الممدوح على أنه إله كل شيء طوع إرادته، يخضع لقدرته في إستيحاء وخشوع، بيده الأقدار وبمشيئته الأعمار[50]

ألا إنما الأقدار طــوع بنـــانه فحاربه تحرب أو فسالمه تسلم

ويقول الشاعر أيضا : [51]

فعنت لك الأبصار وانقادت لك الأقدار، واستحيت لـــك الأنواء

لأجل ذلك يقر الشاعر بخجله أمام عظمة الممدوح، فأشعاره لا تفي المعز حقه من المديح:[52]

والله خصك بالقرآن وفضلـــه واخجلتي مـــا تبلـــغ الأشعـــار

إذن فمن هو هذا الممدوح الذي حارت فيه الألباب؟ لقد حاول ابن هانئ أن يجيب عن هذا السؤال لكنه لم يجد إلى الحقيقة سبيلا فبقي حائرا. في بداية الأمر كان بإمكان كل إنسان أن يتعرف على حقيقة المعز إذا عاد إلى الوحي المنزل ليدله على السمات التي تتجلى في قسمات وجهه لذلك يدعو الشاعر الناس أن يتعرفوا على فضل الممدوح في قوله :[53]

إذا أنت لم تعلم حقيقة فضلـــه فسائل به الوحي المنزل تعلم
على كل خط من أسرة وجهه دليل لعين الناظر المتـــــوسم
فأقسم لو لم يأخذ الناس وصفه عن الله لم يعقل ولم يتـــوهم

إذن فالشاعر يقسم قسما جازما أن حقيقة الممدوح لم تكن لتعرف لو لم يبينها الله للناس، فكأنما المعز في مرتبة النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي خصه الله بعلامات النبوة. فصورة المعز في مخيلة الشاعر لا تستقر على حال، مما يؤكد تطورها على الدوام، فإذا كانت صورته قبل قليل تدرك في الوحي المنزل. فإنها في الشواهد الآتية لا يمكن أن تدرك على الإطلاق إلا وصفا فقط :[54]

والوصف يمكن فيـــــه إلا أنه لا يطلق التشبيه والتمثيـــــل

ويقول في نفس المعنى: [55]

إمام لـــــه مما جهلت حقيقـــة وليس له مما علمت نديـــــد

« هو إمام لا تقدر أن تعرف حقيقته، وليس له نظير فيما تعلم من الأشياء »[56] فكم حاولت الأفهام أن تحيط بحقيقة المعز، فخاب سعيها، وفشل بحثها.

قد جالت الأوهام فيك فدقت الأ فكار عنـــك فجلـــت الألاء

ويعلن ابن هانئ عجزه في النهاية عن إدراك حقيقة المعز، التي لا تدرك إلا كما تدرك حقيقة الله في ضمير المؤمن :[57]

غامرته فعجزت عن إدراكـــه لكنه بضمائري معقـــــول

تجدر الإشارة أن معاني الشاعر لا تفهم إلا في سياق العقيدة الباطنية التي تأخذ بمبدأ التأويل. فلا ضير بعد ذلك إذا أسند ابن هانئ صفات الخالق عز وجل إلى ممدوحه، لأن العقيدة الإسماعلية تقر ذلك. فبماذا تصف هذه العقيدة الإمام ؟ « إنه واحد دهره لا يدانيه أحد ولا يعادله عالم، ولا يوجد منه بدل، ولا له مثل، ولا نظير مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه، ولا اكتساب بل اختصاص من المفضل الوهاب، فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام أو يمكنه اختياره؟

## المراجع والهوامش

1- اليعلاوي، محمد. ابن هانئ المغربي الأندلسي. لبنان: دار الغرب الإسلامي.1405 هـ 1985 م.ص 77.

2- كان المعز يتقن إلى جانب العربية عدة لغات أجنبية كالصيقيلية والإريقية والبربرية (مرمول محمد الصالح، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي.الجزائر، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية. 1983 م. ص 103).وينظر: خالد، أحمد، ابن هانئ. ط. تونس: الشركة التونسية للتوزيع.1976 م.ص27.وينظر كذلك - حسن، ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد المغرب. ط3 . القاهرة: مكتبة النهضة العربية. 1964 م.ص440. وابن خلكان. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.ط. تحقيق احسان عباس. بيروت: دار الثقافة( د ت)، ج4. ص669.

*- هذا التقسيم التاريخي للباحث منير ناجي تبناه في كتابه-ابن هانئ- درس ونقد.دار النشر للجامعيين.ص 134 .

3- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، بيروت دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة.( دت) المجلد الرابع، القسم الأول، ص96.

4- الديوان، ص43.

5- الديوان، ص، ص 47، 48

6- الديوان، ص49

7- مناسبة القصيدة من الديوان، ص108

8- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجد الرابع، القسم الأول، ص96.

9- الديوان، ص،ص109،110

10- الديوان، ص، ص218،219 *- الغنوي هو الطفيل بن عوف شاعر جاهلي اشتهر بوصفه للخيل( ديوان ابن هانئ شرح وتعليق أنطوان نعيم ص 215 ).

11- الديوان ص، ص 214 ،215

12- الديوان ص، ص220،219

13- الديوان ص، ص 220 (ط، دار بيروت)

14- ابن تغري يردي، (جمال الدين أبي المحاسن يوسف) النجوم الزاهرة في ملوك مصر وفاطمة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب مع اسراكات وفهارس جامعة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ج4، ص84.

15- الديوان، ص146.

16- الديوان، ص266 (ط، دار بيروت)

17- الديوان، ص، ص120، 122

*- في البيتين إشارة إلى قوله تعإلى" ووهبنا لداوود سليمان نعم العبد إنه أواب..." ( سورة ص، الآية30 ).

18- مناسبة القصيدة ن ديوان ابن هانئ، شرح أنطوان نعيم، ص 94 وتاريخ ابن خلدون، المجلد الرابع، القسم الأول، ص 97.

19- الديوان، ص، ص 94 ،98 .

20- الديوان، ص، ص 99 ،100.

*- المبالغة تعني أن تثبت للشيء وصفا من الأوصاف تقصد به الزيادة على غيره، فتبلغ بالمعنى أقصاه ومن طرقها الإتيان بصيغة المبالغة أو التشبيه كالتشبيه بالأسد في الشجاعة أو القمر في البهاء، هلال محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث، ص 225.

21- الديوان، ص 68.

22- الديوان، ص 155.

23-أمين أحمد، ضحى الإسلام، ط10. لبنان دار الكتاب العربي 1936 م. ج3، ص، ص 212 ، 213.

24- تامر عارف، جامعة الجامعة،ط2 ، بيروت، تحقيق وتعليق منشورات دار مكتبة الحياة، 1970 م، ص 25 .

25- الديوان، ص،ص 24 ،25 ، شرح أنطوان نعيم.

26- الديوان، ص 33 .

27- الديوان، ص،ص 205 ،206 ، شر ح أنطوان نعيم.

28- الديوان، ص،ص 33 ، 34 .

29- الديوان، شرح أنطوان نعيم، ص 25.

30- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص 219.

31- الديوان، ص 142.

32- الديوان، ص 185.

33- الديوان، ص211.

34- الديوان، ص 34

35- الديوان، ص142

36- الديوان، ص 142

37- الديوان، ص 35

38- الديوان، ص153

39- الديوان، ص، ص 56، 57

40-أمين أحمد، ضحى الإسلام، ص 218 .

41-نفسه، ص 219.

42- الديوان، ص 218

43- الديوان، ص 35

44- الديوان، ص 125

45-أمين أحمد، ضحى الإسلام، ص 218.

46- أمين احمد، ضحى الإسلام، ص 217. ومحسن عبد الناظر مسألة الإمامة والوضع في الحديث عن الفرق الإسلامية: الدار العربية للكتب، 1983، ص،ص 437، 450.

47- الديوان، ص 154.

48-أمين أحمد، ضحى الإسلام، ص 249.

49- الديوان، ص، ص 199، 200.

50- القاضي النعمان، افتتاح الدعوة،ط2. تحقيق فرحات الدشراوي. الجزائر. تونس: الشركة التونسية والديوان الوطني للمطبوعات الجامعي 1986 م. ص 338.

51- الديوان، ص 185.

52- الديوان، ص 89.

53- الديوان، ص 106.

54- الديوان، ص108

*- الحلول: خلاصة هذه النظرية" إن الله حال في كل شيء حتى يصح أن يطلق اسمه على كل الموجودات، ونجم عن إيمان المتصوفين بهذه النظرية، ذهابهم إلى أن الخالق حال فيهم، فإذا وصلوا إلى مرحلة الإنجذاب نطقوا بلسان خالقهم " ( جبور عبد النور ،المعجم الأدبي ، ط2، دار العلم للملايين ص 99 ).

55- الديوان، ص 39.

56- الديوان، ص 108.

57- الديوان، ص 185.